مصرع بلبل

لابراهيم عبد الفتاح طوقان

حكاية رمزية تمثل الواقع في حياة المدن الكبرى حين يدخل تيارها الشاب قادماً من البلدة الصغيرة او القرية البسيطة ... هذه الحياة الصاخبة تخلب ذلك الشاب بزخرفها وفنون لهوها والوان عيشها . فتجتذبه فيرمي بين أحضانها ويلقي بقياده اليها ، فتذهب به في مزالق الضلال كل مذهب

ثم تسفر هذه الحياة عن وجه كالح ، وتتقنع نشوتها عن صحو مضى أواه ... فاذا هنالك الافلاس في احد ثلاثة : في المال ، او الصحة ، أو المستقبل ، وكثيراً ما أعلن الافلاس في الثلاثة جميعاً وهناك الفاجعة الأبدية . . . أما (البلبل) في هذه الحكاية فيرمز الى الشاب المخدوع ، وأما (الوردة) فترمز الى بائعة الهوى والعبث . . . . . ، وأما (الروض) فهو رمز الخانة أو الملهى

قَدَرٌ ساقهُ فآواهُ روضاً لم يكن طار فيهِ قبلاً وغنّى
فاستوى فوق أيكةٍ ورمى عيـ ـنيه فيها هناك يُسرى ويُمنى
واذا الروض بهجةُ الروح طيباً وظلالاً ، وفتنةُ العين حسنا
وكأنّ الغدير بين ضلالٍ وهدىً ، كلما استوى او تثنّى
تنحني فوقه كرائم ذاك الدوح منها الجنى ، وكم يتجنى ...
مطمئنٌ يسير تيهاً ، فان رامَ عناق السعور صدّت فجنّا
هكذا يصبح الحبيب المعنّي بعد حين وهو الحبيبُ المعنّى

***

ومضى البلبل الغريب يطوف الروض حتى ازوى محيّا النهار
راح يأوي الى الغصون ولكن كيف يغفو مشرّد الافكار
كان في الروض فوق ما يتمنى من فنون الأثمار والازهار
غير أنّ ليس فيهِ طيرٌ يغني أيّ روض يحلو بلا أطيار
وسرَت فيه رعدة حين لم يلمـ ـس سوى دارسٍ من الاوكار
وبقايا نوافضٍ رخم المو ت عليها ، مخضب الاظفار
اي خطبٍ اصابكم معشر الطير ...؟ وماذا في الروض من أسرار ؟

***

طلع الفجر باسماً إثرَ ليلٍ دونهُ وحشةٌ كهول المنيهْ

تتغنى اشباحه صاحباتٍ طاراتٍ ، اكفُّها دميهْ
ورجومٌ تذري الغيوم وتهوي كلُّ رجمٍ من الجحيم شظيهْ
وخسوف تحدّث البدرُ فيه بفم الحوت منذراً برزيهْ
ذاك ليل قضى على البلبل المنـ ـكود لولا يدٌ تصدت عليهْ
ملكةٌ عرشها المشارق والتـ ـاج سناها ، أعظِمْ بها شرقيهْ
انقذته فهبَّ يشدو شكوراً مرحاً ، هاتفاً لها بالتحيهْ :

﴿ تحية البلبل للشمس ﴾

﴿١﴾

ملكة النيّراتْ آلهة المشرقينْ
الناس في الغاراتْ اليك مدّوا اليدينْ
وأحرفوا في الصلاةْ تعاديم والتجينْ
وقربوا الاعناقْ
ذلي تراقْ

﴿٢﴾

يا ليل ان الصباحْ رمز حياة الورى
انفاسه في البطاحْ وروحه في القرى
أما رأيت الأقاحْ أفاق بعد الكرى
وضرع الآفاقْ
لثما أفاقْ

﴿٣﴾

هناك راعي الغنمْ جذلان ، حيُّ الفؤادْ
يرتع بين الأكمْ بهيم في كل وادْ
والناي سبب النغمْ وبشهُ في الوهادْ
كوفرة الأشواق
غبَّ الفراق

نَمِيَ الطير همه حين غنّى فلّما يستقرَّ همُّ الطروب
ألِفَ الروض مفرداً ونولّى عنهُ في روحهِ شعورُ الغريب
مستقلٌّ في الملك، لا من شريكٍ طامع يُتّقى ، ولا من رقيب
مطلقٌ ، يستقرّ عند غير تارة او يقبل فوق رطيب

واذا (وردة) تفيض جمالاً تتهادى مع النسيم اللعوبِ
قد جنتها اشواكها مشرعات حرطها دون عاشقٍ أو غصوبِ
تمنح العين حين تبدو وتخفى من ضروب الاغراء كل عجيبِ

***

كل قلب لهُ هواهُ ... ولكن ليس يدري متى يجيء زمانُهْ
وهو إمّا في ظل جفن كحيل كامنُ السحر ، راقدٌ افعوانُهْ
أو وراء ابتسامةٍ حلوةِ الثغر ، نقيّ ، مفلّج أقحوانُهْ
أو على الصدر يستوي فوق عرشين . . مكيناً مؤيداً سلطانُهْ
فاذا كان نفحة من جحيم السرجس ... أمل أحكامهُ شيطانُهْ
واذا هبّ نفحة من نعيم الطهر ... قامت ركيزة اركانُهْ
هو ذا الحبُّ فليكن حين يأتيك، بريئاً من كل عيبٍ مكانُهْ

***

صارت الوردة الخليعة للبلبل همّاً ومأرباً يُشقيهِ
حسرةً للغرير أصبح كرباً ما يلاقيه من دلالٍ وتيهِ
شفّهُ السهد واعتراهُ من الحب سقام مبرح يُضنيهِ
مَن رآها وقد تحامل يهفو نحوها ، كيف أعرضت تغريهِ
مَن رأى روحَهُ تسيل نشيداً لاهباً ، لوعةُ الأسى تُذكيهِ
هي (حوّاء) ذلك الخلد فاحذر لا تكونَنَّ أنت (آدمَ) فيهِ
لا تهب قلبك الكريمَ لئيماً تحت رجليهِ عابثاً يلقيهِ

***

هل يرى في ظلال وردته الحمراء سرًّا بدا وكان خفيًّا
هل يرى للطيور فيها قلوباً نبذتهنَّ يابساً وجنيًّا
هل يرى اليوم ما الذي جعل الروض كئيباً من الطيور خليًّا
كم نذيرٍ بدا لعينيه حتى قام شخص الردى هناك سويًّا

سامهُ حبُّهُ شقاءً ولكن نعمة الحبّ ان يكون شقيًّا
والهوى يطمس العيون، ويُنسي في قرار الأسماع منهُ دويًّا
هكذا يسلك المحب طريق الـــخوف أمنًا ويحسب الرشد غيًّا

***

مَنْ ترى علّم البخيلة حتى سمحت ان يقبّل الطير فاها
لم يصدق عينيه حتى اطلّتْ واطالت في ختلهِ نجواها
زاول الروض عند ذلك بالألحان ... فاسمع روايتي عن صداها

نشيد البلبل للوردة

أنشدي يا صبا وارقصي يا غصونْ
وأسقني يا ندى بين لحظ العيونْ
فيك يا وردتي قد حلا لي الجنونْ
انا مني الهوى انت ملك الفتونْ
انشري ما طوت من غرامي السنونْ
كان في أضلعي فروتهُ الجفونْ
أقربي من فمي خدّيَ شجونْ...

***

ضمّها الطير مطبقًا بجنـــاحيه ، وعمّت بنفره شفتاها
لم يمتّع بنشوة الحبّ حتى اشرعت شوكةٌ تلظّى شباها
اوردتها قليًا ، اذا رفّ يومًا خافقًا للهوى فذاك هواها
كرعت في الدم البريء فلما عكستهُ وهّاجةً وجنتاها
نظر الطير نظرةً اعقبتها روحه طي شهقةٍ معناها :
وردة ... تبهر العيون ... ولكن... كثرة الشم... قد اضاعت... شذاها

نابلس — فلسطين